سادس عشر : ولأقباط مصر وصايا خاصة

وقد كان لأقباط مصر نصيب وافر من وصايا المصطفى ﷺ حتى رأينا الإمام مسلمًا يُبوب لذلك في صحيحه ، وجعل بابا عنوانه : باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر ، ومن مجمل الأحاديث التي جاءت في كتب الحديث أذكر ما يلي :

١- عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أوصى عند وفاته فقال : « الله الله في قبط مصر فإنكم ستظهرون عليهم ، ويكونون لكم عدة وأعواناً في سبيل الله »[(١)] .

٢- عن أبي عبد الرحمن الحبلي أن رسول الله ﷺ قال : « فاستوصوا بهم خيراً ، فإنهم قوة لكم وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله »[(٢)] يعني قبط مصر .

٣- عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً »[(٣)] .

٤- عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم دماً ورحماً »[(٤)].

* * *

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢٣/٢٦٥) وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (١٠/٤٧) وصححه الألباني في الصحيحة (٣١١٣).

(٢) رواه أبو يعلى في المسند (٣/١٥) وابن حبان في صحيحه (١٤٧٣) وقال الأرناؤوط : رجاله ثقات رجال الصحيح إلا أنه مرسل ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح (١٠/٤٨).

(٣) رواه مسلم في فضائل الصحابة رقم (٢٥٤٣) عن أبي ذر .

(٤) رواه الطبراني في الكبير (١٩/٦١) والحاكم في مستدركه (٢/٦٠٣) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح (١٠/٤٨) .

سابع عشر : هل النصارى إخوان للمسلمين ؟

ومما ينبغي الإشارة إليه هنا ، أمر يتعلق بأتباع هذه الديانة (النصرانية) ، فهؤلاء هل يجوز لنا أن نعتبرهم إخوانا لنا ؟

وأود هنا أن أذكر كلاما رائعا للشيخ القرضاوي وهو يؤكد من خلال الأدلة : أن هؤلاء القوم (اليهود والنصارى) إخوان لنا ، وليس هناك مانع شرعي من ذلك ، يقول الشيخ : وهذا تعبير صحيح ولا غبار عليه ، فالأخوة أنواع ومستويات ، أعلاها بلا ريب : «الأخوة الدينية» التي تقوم على العقيدة الواحدة ، وهي التي جاء فيها قول الله تبارك وتعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ (الحجرات:١٠) ، وهي التي امتن الله بها على عباده فقال : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ (آل عمران:١٠٣) . وقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال:٦٢،٦٣) .

وقال ﷺ : «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» [1].

ولكن هناك أنواعاً أخرى غير هذه الأخوة ودون هذه الأخوة ، ولكنها موجودة في الحياة ولها حقوقها وآثارها .

ومن هذه «الأخوة القومية» التي تقوم على رابطة العرق الواحد أو الجنس الواحد ، مثل رابطة «العروبة» بين العرب على اختلاف أديانهم .

وهناك «الرابطة الوطنية» التي تقوم على أساس الوطن الواحد والإقليم الواحد ، مثل رابطة المصريين في مصر ، والسوريين في سوريا ، والعراقيين في العراق ، وهكذا .

وهناك «الأخوة الإنسانية» العامة ، التي تربط البشر بعضهم ببعض باعتبار الآدمية المشتركة .

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٨٠) .

وأنا حين قلت عن المسيحيين العرب الذين يشاركوننا في الانتماء إلى العروبة ، أو المصريين الذين يعايشونا في وطن واحد هو وطننا ووطنهم : إنهم إخوان لنا ، لم أقصد أنهم إخوان لنا في الدين ، فديننا قطعاً مختلف . ولكن قصدت إنهم إخوان لنا في الانتماء القومي أو الانتماء الوطني ، وإطلاق الأخوة بهذا المعنى جائز ومشروع .

وهذا الإطلاق له أصل من القرآن الكريم ، هو الذي دعاني أن أقول ذلك ، منذ سنين ، وقد كنت قبل ذلك أتردد في إطلاقه .

هذا الأصل هو أن كتاب الله تعالى وصف أنبياء الله المرسلين إلى أقوامهم بأنهم « إخوان لهم » مع أنهم كفروا بهم وكذبوهم وعصوهم .

نقرأ في هذا في سورة الشعراء قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (الشعراء:١٢٣،١٢٤) .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾

(الشعراء:١٦٠،١٦١)

وبهذا يتبين لنا أن القرآن الكريم أقر (الأخوة غير الدينية) أي الأخوة المبنية على وحدة القوم ، ومثلها القائمة على وحدة الوطن . فالأخوة الدينية أخص ، وهذه أعم ، ولا تنافي بين الخاص والعام .

بل أقول : هناك أخوة أعم من هذه كلها ، وهي الأخوة البشرية العامة ، المؤسسة على أن جميع البشر عباد الله تعالى ، وأبناء لآدم ، كما قال النبي ﷺ : « أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد »[1] .

وقد روى أحمد وأبو داود عن زيد بن أرقم ، أن النبي ﷺ كان يقول دبر كل صلاة : « اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، أنا شهيد أنك الله وحدك لا شريك

---

(١) رواه أحمد في المسند (٤٣٢٨٩) عن رجل من أصحاب النبي ﷺ ، وقال محققو المسند : إسناده صحيح .

لك . اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، أنا شهيد أن محمدا عبدك ورسولك . اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة» [1].

فهذه الأخوة التي تضمنتها الشهادة الثالثة ، تشمل في ظاهرها كل العباد ، عجما وعربا ، بيضا وسودا ، أغنياء وفقراء ، ملوكا وسوقة ، مسلمين وغير مسلمين.[2]

وأضيف هنا شيئا آخر ؛ ، وهو قوله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(آل عمران:١٥٦) فالقارئ يرى هنا أن الحق سبحانه وصف الكفار بالأخوة ؛ فهل يا ترى يقصد القرآن هنا : الأخوة الدينية ؟ !

لا أعتقد أن أحدا من المفسرين قديما ولا حديثا قال بهذا ، أو سيقول به ؛ قال القرطبي : ﴿ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ ﴾ يعني في النفاق أو في النسب في السرايا التي بعث النبي ﷺ إلى بئر معونة[3] .

قال الرازي : قوله : (إخوانهم) يحتمل أن يكون المراد منه الأخوة في النسب ، وإن كانوا مسلمين ، كقوله تعالى :﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾(الأعراف:٦٥) ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ (الأعراف:٧٣) فإن الأخوّة في هذه الآيات أخوة النسب لا أخوّة الدين ، فلعل أولئك المقتولين من المسلمين كانوا من أقارب المنافقين ، فالمنافقون ذكروا هذا الكلام ، ويحتمل أن يكون المراد من هذه الأخوة المشاكلة في الدين ، واتفق إلى أن صار بعض المنافقين مقتولا في بعض الغزوات فالذين بقوا من المنافقين قالوا ذلك[4].

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٩٢٩٣) عن زيد بن أرقم ، وقال محققو المسند : إسناده ضعيف ، ورواه أبو داوود (١٥٠٨) والنسائي في الكبرى (٩٩٢٩) .

(٢) انظر : فتاوى معاصرة جـ٣ صـ١٩٢، ١٩٣.

(٣) انظر : تفسير القرطبي (جـ٤ صـ٢٤٦) .

(٤) انظر : تفسير الرازي (جـ٤ صـ٤٣٣) .

ثامن عشر : هل النصارى كفار ؟

وهذه قضية أخرى يكثر الكلام والجدل حولها ، وخصوصاً بعد ما ذكرناه من سماحة الإسلام مع هؤلاء القوم ، وكثيراً ما يتجرأ الأدعياء ويتهمون من يقول بكفر النصارى ـ وكذلك اليهود ـ بالتطرف والإرهاب ، ولكن ما العجب في ذلك إن كانوا هم ينظرون إلينا بنفس المنظار ؟ إننا من منظورهم كفار و (أولاد كفار) بيد أننا إن كنا ننظر إليهم كما ينظرون إلينا ، فإننا لا ننظر إلى أولادهم بهذا المنظار ؛ ما لم يبلغوا ويختاروا لأنفسهم ما اختاره لهم آباؤهم .

و لقد رد العلامة القرضاوي على هذه الشبهة فكتب تحت عنوان (لهذا نكفر اليهود والنصارى) يقول : فاليهود والنصارى كفار في اعتقاد المسلمين ؛ لأنهم لم يؤمنوا برسالة محمد ، الذي أرسل إلى الناس كافة ، وإليهم خاصة ، كما جاء في الآيات الصريحة البينة ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (المائدة:١٩) ، وقد آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض ، فهم بنص القرآن الصريح : ﴿ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا ﴾ (النساء:١٥١) .

وهم لم يكتفوا بالكفر برسالة محمد ، والإعراض عنها ، بل كادوا له ومكروا به ، وصدوا عن سبيله . كما قال تعالى ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ (التوبة:٣٢) .

واليهود والنصارى كفار ؛ لأنهم قالوا على الله بغير علم ، وشوّهوا حقيقة الألوهية في كتبهم ، ووصفوا الله بما لا يليق بجلاله وكماله ، ونسبوا إليه نقص البشر ، وعجز البشر ، وجهل البشر ، وهذا ثابت في (أسفار التوراة) التي يؤمن بها اليهود والنصارى جميعا ، فكل ما يؤمن به اليهود في شأن الألوهية والنبوة يؤمن به النصارى ، لأن التوراة المحرفة الموجودة الآن في أيديهم (كتاب مقدس) عند الطائفتين جميعا .

ويزيد النصارى على اليهود ما انفردوا به في شأن المسيح ، حيث اعتبروه إلهـا ، أو ابن إله ، أو واحدا من ثلاثة أقانيم تكوِّن (الإله) . وهذا قد قرر القرآن بوضوح بين ، وبيان واضح : أنه كفر . كما قال تعالى في سورة المائدة ، وهي من أواخر ما نزل من القرآن : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ (المائدة:١٧) في آيتين من السورة آية : ١٧، وآية : ٧٣ ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ (المائدة:٧٣) .

وفـي سـورة التوبـة ـ وهـي مـن أواخـر مـا نـزل أيضًا ـ جـاء قولـه تعـالـى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة:٣٠،٣١) [1].

* * *

(١) انظر: فتاوى معاصرة الدكتور القرضاوي ج ٣ ص ١٦٩ دار القلم الكويت ط الثالثة ٢٠٠١م ، وانظر: موقف الإسلام العقدي من كفر اليهود والنصارى د : القرضاوي ص ٣٥ وما بعدها مكتبة وهبة ط الأولى ١٩٩٩م .

تاسع عشر : شهادة إنصاف

وأود هنا أن أذكر بعض كلمات الإنصاف التي عبّر بها بعض المؤرخين والكتاب من المسلمين ، ومن غير المسلمين ، والتي تدل على سماحة هذا الدين العظيم :

١ – ما كتبه السير توماس . و . أرنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) :

قال وهو يتحدث عن أحد القضايا الشائكة ـ التي يثيرها بعض المتحذلقين في القديم وفي الحديث ـ وهي قضية الجزية . فيقول : ولم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين لونا من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام ، وإنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة . وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش ، في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين . ولما قدم أهل الحيرة المال المتفق عليه ، ذكروا صراحة أنهم دفعوا هذه الجزية على شريطة : « أن يمنعونا وأميرهم البغي » .

كذلك حدث أن سجل خالد في المعاهدة التي أبرمها مع بعض أهالي المدن المجاورة للحيرة قوله : « فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا » .

ويمكن الحكم على مدى اعتراف المسلمين الصريح بهذا الشرط ، من تلك الحادثة التي وقعت في عهد الخليفة عمر . لما حشد الإمبراطور هرقل جيشا ضخما لصد قوات المسلمين المحتلة ، كان لزاما على المسلمين ـ نتيجة لما حدث ـ أن يركزوا كل نشاطهم في المعركة التي أحدقت بهم .فلما علم بذلك أبو عبيدة قائد العرب كتب إلى عمال المدن المفتوحة في الشام يأمرهم برد ما جُبي من الجزية من هذه المدن ، وكتب إلى الناس يقول : « إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع ، وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم ، وإنا لا نقدر

على ذلك ، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ، ونحن لكم على الشرط ، وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم» . وبذلك ردت مبالغ طائلة من مال الدولة ، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين ، وقالوا : «ردكم الله علينا ، ونصركم عليهم (أي على الروم).. فلو كانوا هم ، لم يردوا علينا شيئا ، وأخذوا كل شيء بقي لنا».

وقد فرضت الجزية ـ كما ذكرنا ـ على القادرين من الذكور مقابل الخدمة العسكرية التي كانوا يطالبون بها لو كانوا مسلمين ، ومن الواضح أن أي جماعة مسيحية كانت تُعفى من أداء هذه الضريبة إذا ما دخلت في خدمة الجيش الإسلامي . وكانت الحال على هذا النحو مع قبيلة (الجراجمة) وهي مسيحية كانت تقيم بجوار أنطاكية ، سالمت المسلمين وتعهدت أن تكون عونا لهم ، وأن تقاتل معهم في مغازيهم ، على شريطة ألا تؤخذ بالجزية ، وأن تعطى نصيبها من الغنائم .

ولما اندفعت الفتوح الإسلامية إلى شمال فارس سنة ٢٢هـ ، أُبرم مثل هذا الحلف مع إحدى القبائل التي تقيم على حدود تلك البلاد ، وأعفيت من أداء الجزية مقابل الخدمة العسكرية .

ونجد أمثلة شبيهة بهذه للإعفاء من الجزية في حالة المسيحيين الذين عملوا في الجيش أو الأسطول في ظل الحكم التركي . مثال ذلك ما عومل به أهل ميغاريا (Migaria) ، وهم جماعة من مسيحي ألبانيا ؛ الذين أُعفوا من أداء هذه الضريبة على شريطة أن يقدموا جماعة من الرجال المسلحين لحراسة الدروب على جبال (cithaeron) و(Geraned) التي كانت تؤدي إلى خليج كورنته ؛ وكان المسيحيون الذين استخدموا طلائع لمقدمة الفتح التركي ، لإصلاح الطرق وإقامة الجسور ، وقد أعفوا من أداء الخراج ، ومنحوا هبات من الأرض المعفاة من جميع الضرائب .

وكذلك لم يدفع أهالي (Hydra) المسيحيون ضرائب مباشرة للسلطان ، وإنما قدموا مقابلها فرقة من مائتين وخمسين من أشداء رجال الأسطول ، كان ينفق عليهم من بيت المال في تلك الناحية .

وقد أعفي أيضا من الضريبة أهالي رومانيا الجنوبية الذين يطلقون عليهم (Armatioli) ، وكانوا يؤلفون عنصرا هاما من عناصر القوة في الجيش التركي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين ، ثم المرديون (Midrdites) وكان ذلك على شريطة أن يقدموا فرقة مسلحة في زمن الحرب .

وبتلك الروح ذاتها لم تقرر جزية الرؤوس على نصارى الإغريق الذين أشرفوا على القناطر التي أمدت القسطنطينية بماء الشرب ، ولا على الذين كانوا في حراسة مستودعات البارود في تلك المدينة،نظرا إلى ما قدموه للدولة من خدمات .

ومن جهة أخرى أعفي الفلاحون المصريون من الخدمة العسكرية على الرغم من أنهم كانوا على الإسلام . وفرضت عليهم الجزية في نظير ذلك ، كما فرضت على المسيحيين [1].

هذا ما سجله المؤرّخ المنصف السير توماس أرنولد ، وما حمل الرجل على ما ذهب إليه إلا ما رآه واضحا في صفحات التاريخ .

٢- ما ذكره «ول ديورانت» في كتابه «قصة الحضارة» :

قال وهو يتحدث عن التسامح في عهد الخلافة الأموية : لقد كان أهل الذمة - المسيحيون ، والزرادشتيون ، واليهود ، والصابئون - يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيرا في البلاد المسيحية في هذه الأيام ، فلقد كانوا أحرارا في ممارسة شعائر دينهم ، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم ، ولم يُفرَض عليهم أكثر من ارتداء زي ذي لون خاص [2] ، وأداء ضريبة عن كل شخص تختلف باختلاف دخله ، وتتراوح بين دينار وأربعة دنانير . ولم تكن هذه الضريبة

---

(١) انظر: الدعوة إلى الإسلام الطبعة الثالثة مكتبة النهضة السير توماس . و . أرنولد ترجمة : د : حسن إبراهيم حسن ، وآخرون صـ٧٩-٨١ .

(٢) ليس المقصود من الزي الخاص تحقير أهل الذمة ، وإنما كان هذا الزي بمثابة إثبات الهوية ، لأنه لم يكن هناك ما يميز المسلمين من أهل الذمة مما يعرف الآن بالهوية ، أو بالبطاقة الشخصية .

تُفرَض إلا على غير المسلمين القادرين على حمل السلاح ، ويُعفَى منها الرهبان ، والنساء ، والذكور الذين دون البلوغ ، والأرقّاء ، والشيوخ ، والعجزة ، والعمي ، والشديد والفقر ، وكان الذميون يُعفون في نظير ذلك من الخدمة العسكرية ، أو إن شئت فقل : لا يُقبلون فيها ، ولا تُفرض عليهم الزكاة البالغ قدرها ٢,٥٪ من الدخل السنوي ، وكان لهم على الحكومة أن تحميهم ، ولم تكن تُقبل شهادتهم في المحاكم الإسلامية ، ولكنهم كانوا يتمتعون بحكم ذاتي يخضعون فيه لزعمائهم وقضاتهم وقوانينهم [١] .

٣- البطريرك اغنطيوس الرابع هزيم :

قال البطريرك اغنطيوس الرابع هزيم في بحثه المقدم ضمن كتاب «المسيحية عبر تاريخها في المشرق» والذي أعده عدد من الكُتّاب النصارى : لم يعان المسيحيون في بلاد الشام الكثير من تبدل الأوضاع في السنوات العشر التي عقبت الفتح . فلم يلجأ الفاتحون إلى الشدة ليفرضوا على المغلوبين معتقداتهم الإسلامية بل لبثت سوريا بلداً «مسيحياً» فيها كنائس رائعة ذائعة الصيت على نحو كنيسة القيامة وكنيسة اللدّ والرّها ، وحافظت على طابعها حتى نهاية الحقبة الأموية . وكان السواد الأعظم من سكان المدن مسيحياً .

وليس مستغرباً أن يشعر المسيحيون بالطمأنينة التي وفرّت لهم إلا في بعض الحالات ، حيث تأثروا بأحداث محلية الطابع . ومن الوقائع التي تستحق الذكر بناء الخليفة معاوية كنيسة الرّها الكبرى على نفقته بعد أن دمرها الزلزال وإتاحته لابنه يزيد أن يختلط بالمسيحيين ويتردد على رهبانهم . ويروي الأب لامنس ، استناداً إلى ابن قتيبة ، قصة لا تخلو من الدلالة على علاقة معاوية بالمسيحيين . فعندما طعن في السن أصابه الأرق وكان يفيق كل ليلة على أجراس الكاتدرائية المجاورة لقصره فلم يشأ أن يسكتها بالشدة بل اعتمد الحيلة واكتفى بذلك رغم

---

(١) انظر : قصة الحضارة ول ديورانت جـ١٣ صـ١٣١ .

عدم نجاحه . ولم يعمل على تحويلها مسجد ، ومثله فعل عبد الله بن مروان لاحقاً للأسباب السياسية ذاتها .

وقد تحالف معاوية مع القبائل المسيحية مثل بني كلب التي تنتمي إليها زوجته ميسون . ومال أعضاء أسرته إلى السلوك ذاته . وقضى ابنه يزيد صباه في عشرة أخواله المسيحيين ، وفي صحبة أترابه كالأخطل ومنصور بن سرجون (القديس يوحنا الدمشقي) وسمح بأن يتتلمذ ابنه خالد على يد الراهب ماريانس أو اسطفانس . ويخبرنا ابن العبر أنه أبقى ـ لاحقا ـ مسيحيين حكاماً على بعض المقاطعات ، كالرّها التي حكمها طويلاً نسطاس بن أندراوس .

وكان قصر الخلفاء مفتوحاً للشعراء ومنهم عدد من المسيحيين كالأعشى والنابغة وبخاصة الأخطل الذي أباح لنفسه حرية كبيرة ، بل مدهشة ، في التصرف كما في الكلام .

استمر المسيحيون يمارسون شعائرهم الدينية ولا يكتمون معتقداتهم بل كانوا يجاهرون بها ويُعلّقون في أعناقهم صلبانا ، كما ظل كُتّاب الدواوين المسيحيون ، وحتى مطلع القرن الثاني للهجرة ، يرسمون علامة الصليب على ظهر الوثائق الرسمية كما تشهد على ذلك مخطوطات البردي في مصر والمكتوبة باللغتين اليونانية والعربية ، وكان المسلمون رؤساء هؤلاء الكُتّاب يثبتون ختمهم إلى جانب الصليب بدل أن ينهوهم عن ذلك [1].

٤- فرح فرزلي :

وقال فرح فرزلي في بحثه المقدم ضمن كتاب «المسيحية عبر تاريخها في المشرق» والذي أعده عدد من الكُتّاب النصارى : أكد المؤرخون العرب والغربيون

---

(١) انظر : المسيحية عبر تاريخها في المشرق تحرير كل من : حبيب بدر وسعاد سليم وجوزيف أبو نهرا صادر عن مجلس كنائس الشرق الأوسط بيروت لبنان الطبعة الأولى ٢٠٠١م صـ٤٨٢ ، ٤٨٣ بتصرف .

أن القدس فُتحت صلحا ، وبحسب الاتفاقات الموقعة بين الأطراف ، غادر الفرنج المدينة وكانوا قد باعوا ما لا يمكنهم حمله من أمتعتهم وذخائرهم وأموالهم بأرخص الأثمان ، فاشتراها التجار من أهل العسكر ، واشتراها النصارى من أهل القدس الذين ليسوا من الفرنج ، وطلب هؤلاء من صلاح الدين أن يمكنهم من المقام في مساكنهم ، ويأخذ الجزية فأجابهم إلى ذلك ، وهكذا ثبت الأرمن في مركزهم في كاتدرائية مار يعقوب ، وجعلهم يحتفظون بممتلكاتهم في بيت لحم ، لأن العلاقات الأرمينية ـ الأيوبية كانت جيدة كما كان قد رسمها نور الدين سنة (١١٧٢م/ ٥٦٨هـ) .

وراعى صلاح الدين القبط والأحباش وثبتهم في أماكنهم لأن الأقباط كانوا من رعاياه والأحباش من جيرانه ، ومنح القبط دير السلطان ، ورد لهم كل الأماكن التي استولى عليها الفرنج . وكان بالقدس بعض نساء ملوك الروم ممن ترهبن وأقمن في المدينة ومعهن حشد من العبيد والجواري وخلق كثير ، ولهن من الأموال والجواهر النفيسة شيء عظيم ، فطلبن الأمان لأنفسهن ومن معهن فأمّنهن [1].

٥- كلمات رائعة لبعض أقباط مصر :

وهذه كلمات رائعة رصينة لعدد من أقباط مصر يقرون فيها بروعة وعدالة الشريعة الإسلامية ، ومن هؤلاء :

مكرم عبيد باشا : نحن مسلمون وطنًا ، ونصارى دينًا ، اللهم اجعلنا نحن المسلمين لك ، وللوطن أنصارًا ، واللهم اجعلنا نحن نصارى لك ، وللوطن مسلمين .[2]

البابا شنودة : إن الأقباط في ظل حكم الشريعة الإسلامية يكونون أسعد حالا وأكثر أمنًا ، ولقد كانوا كذلك في الماضي ، حينما كان حكم الشريعة هو السائد ؛ نحن نتوق إلى أن نعيش في ظل : « لهم ما لنا وعليهم وما علينا » .

---

(١) انظر : المسيحية عبر تاريخها في المشرق مرجع سابق صـ٥٨٣ .

(٢) صحيفة الوفد القاهرية عدد ١٩٩٣/١/٢١م .

إن مصر تجلب القوانين من الخارج حتى الآن ، وتطبقها علينا ، ونحن ليس عندنا ما في الإسلام من قوانين مُفصلة ، فكيف نرضى بالقوانين المجلوبة ولا نرضى بقوانين الإسلام ؟ [١]

الأنبا موسى ــ الأسقف العام ــ : نحن مصريون عرقًا ، ولكن الثقافة الإسلامية هي السائدة الآن .. وأي قبطي يحمل في الكثير من حديثه تعبيرات إسلامية يتحدث بها ببساطة ودون شعور بأنها دخيلة ، بل هي جزء من مكوناته .. ومصر دائمًا دولة مسلمة ومتدينة ، ولكن بدون تطرف [٢].

الأنبا يوحنا قلتة : أنا مسلم ثقافة مائة في المائة .. أنا مسيحي دينًا ، وعضو في الحضارة الإسلامية .. فكلنا مسلمون حضارة وثقافة ، وإنه يُشرفني وأفتخر أنني مسيحي عربي أعيش في حضارة إسلامية ، وفي بلد إسلامي ، وأساهم وأبني مع جميع المواطنين ، هذه الحضارة الرائعة [٣].

غالي شكري : إن الحضارة الإسلامية هي الانتماء الأساسي لأقباط مصر ولكافة المواطنين .. فلقد ورثت كل ما سبقها من حضارات ، وأصبحت هي الانتماء الأساس ، والذي بدونه يصبح المواطن في ضياع مُطلق .. إننا ننتمي ـ كعرب من مصر ـ إلى الإسلام الحضاري والثقافي وهذا الانتماء لا يتعارض مطلقًا مع العقيدة الدينية ؛ لأن الإسلام وحد العرب ، وكان عامل توحيد للشعوب والقبائل والمذاهب والعقائد [٤].

---

(١) الأهرام القاهرية عدد ٣/٦ /١٩٨٥م .

(٢) نقلا عن كتاب : الملل والنحل والعراق . هموم الأقليات في العالم العربي سعد الدين إبراهيم ط ١٩٩٠م صـ٥٣٠ .

(٣) نقلا عن : الإسلام والسياسة الرد على شبهات العلمانيين محمد عمارة طبعة دار الرشاد القاهرة ١٩٩٧م صـ١٥٢ .

(٤) نقلا عن كتاب : يا أقباط مصر انتبهوا محمد مورو صـ١٥ ط دار المختار الإسلامي ١٩٩٨م.

٦- السباعي رحمه الله ينقل عن كثير من المستشرقين :

وأختم هذه الشهادة بما نقله الأستاذ مصطفى السباعي عن هذا التسامح في كتابه الرائع «من روائع حضارتنا» ، حيث كتب يقول : إن التسامح الديني في حضارتنا مما لا يعهد له مثيل في تاريخ العصور الماضية ، وقد أجمع المؤرخون الغربيون ممن يحترمون الحق على هذا التسامح وأشادوا به .

يقول المستر «درايبر» الأمريكي المشهور : إن المسلمين الأوائل في زمن الخلفاء لم يقتصروا في أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام ، بل فوّضوا إليهم كثيرا من الأعمال الجسام ، ورقّوهم إلى مناصب الدولة ، حتى إن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا بن ماسويه ، ولم يكن ينظر إلى البلد الذي عاش فيه العالم ، ولا إلى الدين الذي ولد فيه ، بل لم يكن ينظر إلا إلى مكانته من العلم والمعرفة .

ويقول المؤرخ الشهير المعاصر «ولز» في صدر بحثه عن تعاليم الإسلام : (إنها أسست في العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم ، وإنها لتنفخ في الناس روح الكرم والسماحة ، كما أنها إنسانية السِّمة ، ممكنة التنفيذ ، فإنها خلقت جماعة إنسانية يقل ما فيها مما يغمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعي عما في أية جماعة أخرى سبقتها ...) إلى أن يقول عن الإسلام : (إنه مليء بروح الرفق والسماحة والأخوة) .

ويقول السير «مارك سايس» في وصف الإمبراطورية الإسلامية في عهد الرشيد : (وكان المسيحيون والوثنيون واليهود والمسلمين على السواء يعملون في خدمة الحكومة) .

ويقول «ترنون» : (لم يكن للدين دخل في معاملة الشعراء والمغنين) .

ويقول «ليفي بروتستال» في كتابه أسبانيا الإسلامية في القرن العاشر :

(إن كاتب الذمم كثيراً ما كان نصرانياً أو يهودياً ، والوظائف مما يقلده النصارى واليهود ، وقد كانوا يتصرفون للدولة في الأعمال الإدارية والحربية ، ومن اليهود من كانوا ينوبون عن الخليفة بالسفارات إلى دول أوربا الغربية) .

ويقول «رينو» في تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط : (إن المسلمين في مدن الأندلس كانوا يعاملون النصارى بالحسنى ، كما أن النصارى كانوا يراعون شعور المسلمين ، فيختنون أولادهم ولا يأكلون لحم الخنزير) .

ويقول «أرنولد» وهو يتحدث عن المذاهب الدينية بين الطوائف المسيحية : (ولكن مبادئ التسامح الإسلامي حَرّمت مثل هذه الأعمال التي تنطوي على الظلم ، بل كان المسلمون على خلاف غيرهم ، إذ يظهر لنا أنهم لم يألوا جهداً في أن يعاملوا كل رعاياهم من غير المسلمين بالعدل والقسطاس ، مثال ذلك : أنه بعد فتح مصر استغل اليعاقبة فرصة إقصاء السلطات البيزنطية ليسلبوا الأرثوذكس كنائسهم ، ولكن المسلمين أعادوها أخيراً إلى أصحابها الشرعيين ، بعد أن دلل الأرثوذكس على ملكهم لها) ... وإذا نظرنا إلى التسامح الذي على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي : ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة التصديق .

ونرى خير ما نختم به هذا البحث في التدليل على تسامحنا وتعصبهم ، شهادة لحبر من أحبار النصرانية ليس بمتَّهم في تحيزه . لقد تحدث بطريرك أنطاكية ميخائيل الأكبر ، وقد عاش في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ـ بعد أن خضعت الكنائس الشرقية للحكم الإسلامي خمسة قرون ـ عن تسامح المسلمين واضطهاد الروم للكنائس الشرقية : (وهذا هو السبب في أن إله الانتقام الذي تفرّد بالقوة والجبروت ، والذي يديل دولة البشر كما يشاء فيؤتيها من يشاء ويرفع الوضيع ، لما رأى شرور الروم ، الذين لجئوا إلى القوة ، فنهبوا كنائسنا ، وسلبوا

أديارنا في كافة ممتلكاتهم ، وأنزلوا فينا العقاب في غير رحمة ولا شفقة : أرسل أبناء إسماعيل (العرب) من الجنوب (الجزيرة العربية) ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم . وفي الحق أننا إذا كنا في تحملنا شيئاً من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا وإعطائها لأهل خلقيدونية ، فقد استمرت هذه الكنائس في حوزتهم . ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التي وجدت في حوزتها ـ وفي ذلك الوقت كانت قد انتزعت منا كنيسة حمص الكبرى وكنيسة حوران ـ مع ذلك لم يكن كسبا هينا أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا ، وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام) .

ألست ترى معي أن قول «غوستاف لوبون» : إن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ولا دينا سمحا مثل دينهم . هو إنصاف للحق قبل أن يكون إنصافا للمسلمين ؟ !(١)

* * *

(١) انظر : من روائع حضارتنا د : مصطفى السباعي ٨٠ وما بعدها بتصرف .

المتمم للعشرين : تسامح أضر بأهله وأساء الآخرون فهمه

لم يكن هذا التسامح الذي تحدثنا عنه سابقاً وليد فكرة عابرة ، أو مرحلة طارئة ، أو في دولة معينة ، ولكنه كان تعاليم دين ، وأقوال رسول ، وأعمال خلفاء راشدين ، وأمراء مسلمين . حتى قال المستشرق الألماني «آدم متز» : لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام [1].

وهذا آخر وهو : المستشرق البريطاني «توماس أرنولد» يذكر قمة هذا التسامح فيقول : إنه من الحق أن نقول : إن غير المسلمين قد نعموا بوجه الإجمال في ظل الحكم الإسلامي ؛ بدرجة من التسامح لا نجد لها معادلاً في أوربة قبل الأزمنة الحديثة [2].

ولكن يبدو أن بعض الشعائر والأحكام ـ التي دلت على التسامح ودعت إليه ـ تُفهم عند بعض الناس بغير مقصودها ، أو تطبق بغير مرادها ، فينحاز الناس في مثل هذه الأحكام إلى فريقين :

١- فريق يميل إلى الإفراط .

٢- فريق يميل إلى التفريط .

ولدى الفريق الأول الذي يميل إلى الإفراط ـ تظهر أمور لم تكن في الحسبان .

ولنظهر الأمر إيضاحاً ، والحقيقة تجلية وبرهاناً في الموضوع الذي بين أيدينا فنقول :

---

(١) انظر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع عشر مرجع سابق جـ١ صـ١٠٦.

(٢) انظر : الدعوة إلى الإسلام سير توماس أرنولد ترجمة د . إبراهيم حسن وآخرون صـ٧٣٠.

لقد أساء بعض الأمراء هذه المسامحة التي أمرت بها الشريعة الغراء فجعلوا بعض النصارى في وضع ليسوا أهلاً له ، فجعلوا منهم الوزراء[1] ، وخزان الأموال ، والحجاب ، وأصحاب الدواوين ، والأعمال المهمة . ومن هؤلاء :

١- الوزير «عيسى بن نسطورس» الذي كان وزيراً لحاكم مصر العزيز «نزار بن معد» .

٢- أبو الفتح بن أبي النجم النصراني .

٣- أبو الفرج بن القف الطبيب الجراح تولى الوزارة في الدولة الفاطمية .

٤- أبو الفرج صاعد بن هبة الله النصراني ، كان وزيراً للخليفة الناصر العباسي .

٥- بحر بن إسحاق القرطبي النصراني ، تولى الوزارة لعبد الرحمن الناصر الثالث .

وقد أساء النصارى ـ وكذلك اليهود ـ ممن استوزروا في ظل الدولة الإسلامية ما أتيح لهم من الأعمال والإدارات ، وكانت هذه الإساءة ظاهرة جلية في بعض الأحيان ، وباطنة في أحيان أخر ، وقد صدق في هؤلاء قول الشاعر :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإذا أنت أكرمت اللئيم تمردا

وصدق فيهم قول العرب قديماً : (سمن كلبك يأكلك) .

وكانت هذه الإساءات

على نوعين :

النوع الأول : استخدام وظائفهم وسلطانهم في ذل المسلمين .

النوع الثاني : التعاون مع أعداء المسلمين وموالاة الغزاة الماكرين .

---

(١) كلمة الوزير كانت تطلق قديماً على ما يعرف الآن برئيس الوزراء إذ لم يكن في الغالب للخليفة إلا وزير واحد وهذا الوزير يقوم بما يطلق عليه الآن وزارات التفويض .

النوع الأول : استخدام وظائفهم وسلطانهم في ذل المسلمين .

استغل بعض النصارى من ذوي النفوس المريضة ، والقلوب الخربة ، والطموحات الدنيئة ؛ سماحة الإسلام ، وتولية بعض الأمراء والخلفاء لهم بعض الأعمال الحسّاسة في دولة الإسلام ؛ فعملوا على إذلال المسلمين ، وقد سجل لنا التاريخ بعض هذه المواقف ونذكر منها ما يلي :

١- قال ابن الأثير : في هذه السنة (٥٣١هـ) في جمادى الأولى هرب تاج الدولة بهرام وزير الحافظ لدين الله العلوي صاحب مصر ، وكان قد استوزره بعد قتل ابنه حسن سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، وكان نصرانيا أرمنيا فتمكن في البلاد ، واستعمل الأرمن وعزل المسلمين ، وأساء السيرة فيهم ، وأهانهم هو والأرمن الذين ولاّهم ، وطمعوا فيهم[1].

٢- ولّى العزيز «نزار بن معد» «عيسى بن نسطورس» النصراني كتابته ، واستناب بالشام يهوديا اسمه «منشا» فاعتز بهما النصارى واليهود وآذوا المسلمين ، فعمد أهل مصر وكتبوا قصة وجعلوها في يد صورة عملوها من قراطيس فيها : بالذي أعز اليهود بمنشا ، والنصارى بعيسى بن نسطورس ، وأذل المسلمين بك إلا كشفت ظلامتي ، وأقعدوا تلك الصورة على طريق العزيز والرقعة بيدها ، فلما رآها أمر بأخذها ، فلما قرأ ما فيها ، ورأى الصورة من قراطيس علم ما أريد بذلك فقبض عليهما ، وأخذ من عيسى ثلاثمائة ألف دينار ، ومن اليهودي شيئا كثيرا .

وكان العزيز «نزار بن معد» يحب العفو ويستعمله ، فمن حلمه أنه كان بمصر شاعر اسمه الحسن بن بشر الدمشقي ، وكان كثير الهجاء ، فهجا يعقوب ابن كلس وزير العزيز ، وكاتب الإنشاء أبا نصر عبد الله الحسين القيرواني ، فقال :

---

(١) انظر: الكامل محمد بن محمد الشيباني ط دار الكتب العلمية بيروت ط ١٩٩٥م . جـ٩ صـ٢٩٦.

قل لأبي نصـر حاجـب القصـر والمتـأتي لـنقض ذا الأمـر
انقض عرا الملـك للـوزير تفـز منـه بحسـن الثنـاء والـذكر
واعط أو امنع ولا تخـف أحـدا فصاحب القصر ليس في القصـر
وليس يـدري مـاذا يـراد بـه وهو إذا مـا درى فمـا يـدري

فشكاه ابن كلس إلى العزيز وأنشده الشعر ، فقال له : هذا شيء اشتركنا فيه في الهجاء ، فشاركني في العفو عنه ، ثم قال هذا الشاعر أيضا وعرّض بالفضل القائد :

تنصـر فالتنصـر ديـن حـق عليـه زماننـا هـذا يـدل
وقـل بثلاثـة عـزوا وجلـوا وعطل ما سـواهم فهـو عطـل
فيعقـوب الـوزير أب وهـذا العزيز ابن وروح القـدس فضـل

فشكاه أيضا إلى العزيز فامتعض منه ، إلا أنه قال : اعف عنه ، فعفا عنه ، ثم دخل الوزير على العزيز فقال: لم يبق للعفو عن هذا معنى وفيه غض من السياسة ، ونقض لهيبة الملك ، فإنه قد ذكرك وذكرني وذكر ابن زبارج نديمك وسبك بقوله:

زبارجي نديم وكلسي وزير نعـم على قدر الكلب يصلح الساجور[1]

فغضب العزيز وأمر بالقبض عليه فقبض عليه لوقته ، ثم بدا للعزيز إطلاقه ، فأرسل إليه يستدعيه ، وكان للـوزير عـين في القصـر فـأخبره بـذلك ، فـأمر بقتلـه فقـتل ، فلما وصل رسول العزيز في طلبـه رآه رأسـه مقطوعـا ، فعـاد إليـه فـأخبره فاغتم له.[2]

٣- لما حج أبو جعفر المنصور اجتمع جماعة من المسلمين إلى شبيـب ابـن شيبة ، وسألوه مخاطبة المنصور أن يرفع عنهم المظالم ، ولا يمكن النصارى من ظلمهم وعسفهم في ضياعهم ، ويمنعهم من انتهاك حرماتهم ، وتحريهم ،

(١) الساجور :القلادة أو الخشبة التي توضع في عنق الكلب . انظر :لسان العرب جـ٤ صـ٣٤٧.
(٢) انظر : الكامل مرجع سابق جـ٧ صـ٤٧٧.

لكونه أمرهم أن يقبضوا ما وجدوه لبني أمية ، قال شبيب : فطفت معه ، فشبك أصابعه على أصابعي ، فقلت : يا أمير المؤمنين أتأذن لي أن أكلمك بما في نفسي؟ فقال : أنت وذاك . فقلت : إن الله لما قسم أقسامه بين خلقه لم يرض لك إلا بأعلاها وأسناها ، ولم يجعل فوقك في الدنيا أحداً ، فلا ترض لنفسك أن يكون فوقك في الآخرة أحد ، يا أمير المؤمنين : اتق الله فإنها وصية الله إليكم جاءت ، وعنكم قبلت ، وإليكم تؤدى ، وما دعاني إلى قولي إلا محض النصيحة لك ، والإشفاق عليك ، وعلى نعم الله عندك ، اخفض جناحك إذا علا كعبك ، وابسط معروفك إذا أغنى الله يديك . يا أمير المؤمنين إن دون أبوابك نيرانا تأجج من الظلم والجور ، لا يعمل فيها بكتاب الله ولا سنة نبيه محمد ﷺ ، يا أمير المؤمنين سلطت الذمة على المسلمين ظلموهم وعسفوهم ، وأخذوا ضياعهم ، وغصبوهم أموالهم ، وجاروا عليهم ، واتخذوك سلما لشهواتهم ، وإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا يوم القيامة . فقال المنصور : خذ خاتمي فابعث به إلى من تعرفه من المسلمين . وقال : يا ربيع اكتب إلى الأعمال ، واصرف من بها من الذمة ، ومن أتاك به شبيب فأعلمنا بمكانه لنوقع باستخدامه . فقال شبيب : يا أمير المؤمنين إن المسلمين لا يأتونك وهؤلاء الكفرة في خدمتك ؛ إن أطاعوهم أغضبوا الله ، وإن أغضبوهم أغروك بهم ، ولكن تولي في اليوم الواحد عدة فكلما وليت رجلا عزلت آخر [1].

٤- وأما المهدي فإن أهل الذمة في زمانه قويت شوكتهم ، فاجتمع المسلمون إلى بعض الصالحين ، وسألوه أن يعرفه بذلك وينصحه ، وكان له عادة في حضور مجلسه فاستدعي للحضور عند المهدي ، فامتنع فجاء المهدي إلى منزله وسأله السبب في تأخره ، فقص عليه القصة ، وذكر اجتماع الناس إلى بابه متظلمين من ظلم الذمة ثم أنشده :

---

(١) انظر: أحكام أهل الذمة مرجع سابق جـ١ صـ٢١٤، ٢١٥.

بـــابي وأمـــي ضـــاعت الأحـــلام أم ضاعت الأذهـــان والأفهـــام ؟
من صد عن ديـــن الـــنبي محمـــد ألـــه بـــأمر المســـلمين قيـــام ؟
إلا تكـــن أســـيافهم مشـــهورة فينـــا فتلـــك ســـيوفهم أقـــلام

ثم قال : يا أمير المؤمنين إنك تحملت أمانة هذه الأمة ، وقد عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ، ثم سلمت الأمانة التي خصك الله بها إلى أهل الذمة دون المسلمين . يا أمير المؤمنين أما سمعت تفسير جدك لقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ يَوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا ٱلْكِتَبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ (الكهف:٤٩): أن الصغيرة التبسم ، والكبيرة القهقهة ؟

فما ظنك بأموال المسلمين وأماناتهم وأسرارهم ؟ وقد نصحتك وهذه النصيحة حجة عليَّ ما لم تصل إليك .

فولّى عمارة بن حمزة أعمال الأهواز ، وكور دجلة وكور فارس ، وقلد حماداً أعمال السواد ، وأمره أن ينزل إلى الأنبار وإلى جميع الأعمال ، ولا يترك أحداً من الذمة يكتب لأحد من العمال ، وإن علم أن أحداً من المسلمين استكتب أحداً من النصارى قطعت يده [1].

٥- وكان للمهدي على بعض ضياعه كاتب نصراني بالبصرة ، فظلم الناس في معاملته ، فتظلم المتظلمون إلى سوار بن عبد الله القاضي ، فأحضر وكلاء النصراني واستدعي بالبينة ، فشهدت على النصراني بظلم الناس ، وتعدي مناهج الحق . ومضى النصراني فأخذ كتاب المهدي إلى القاضي سوار بالتثبت في أمره ، فجاء البصرة ومعه الكتاب وجماعة من حمقى النصارى ، وجاءوا إلى المسجد فوجدوا سواراً جالساً للحكم بين المسلمين ، فدخل المسجد وتجاوز الموضع الذي كان يجب الوقوف عنده ، فمنعه الخدم فلم يعبأ بهم وسبهم ، ودنا حتى جلس عن يمين سوار ، ودفع له الكتاب ، فوضعه بين يديه ولم يقرأه . وقال : ألست

---

(١) انظر : أحكام أهل الذمة ابن القيم جـ١ صـ٢١٥، ٢١٦.

نصـــرانياً ؟ فقال : بلى أصلح الله القاضي . فرفع رأسه وقال : جروا برجله فسحب إلى باب المسجد ، وأدبه تأديباً بالغاً وحلف ألا يبرح واقفاً إلى أن يوفي المسلمين حقوقهم . فقال له كاتبه : قد فعلت اليوم أمراً يخاف أن يكون له عاقبة . فقال : أعز أمر الله يعزك الله [1]

٦- وحج المتوكل فرئي رجل يطوف بالبيت ويدعو على المتوكل ، فأخذه الحرس وجاءوا به سريعاً فأمر بمعاقبته . فقال له : والله يا أمير المؤمنين ما قلت ما قلته إلا وقد أيقنت بالقتل فاسمع كلامي ، ومر بقتلي . فقال : قل . فقال : سأطلق لساني بما يرضي الله ورسوله ويغضبك يا أمير المؤمنين ، قد اكتنفت دولتك كُتَّاباً من الذمة أحسنوا الاختيار لأنفسهم ، وأساءوا الاختيار للمسلمين ، وابتاعوا دنياهم بآخرة أمير المؤمنين ، خفتهم ولم تخف الله ، وأنت مسؤول عما اجترحوا ، وليسوا مسؤولين عما اجترحت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أخسر الناس صفقة يوم القيامة من أصلح دنيا غيره بفساد آخرته ، واذكر ليلة تتمخض صبيحتها عن يوم القيامة ، وأول ليلة يخلو المرء في قبره بعمله . فبكى المتوكل إلى أن غشي عليه ، وطلب الرجل فلم يوجد [2].

٧- وفي أيام الآمر بأمر الله امتدت أيدي النصارى ، وبسطوا أيديهم بالجنايـة ، وتفننوا في أذى المسلمين ، وإيصال المضرة إليهم ، واستعمل منهم كاتب يعرف بالراهب ، ولقب بالأب القديس ، الروحاني النفيس ، أبي الآباء ، وسيد الرؤساء ، مقدم دين النصرانية ، وسيد البتركية ، صفي الرب ومختاره ، ثالث عشر الحواريين ، فصادر اللعين عامة من بالديار المصرية من كاتب وحاكم وجندي وعامل وتاجر ، وامتدت يده إلى الناس على اختلاف طبقاتهم ، فخوّفه بعض مشايخ الكتاب من خالقه وباعثه ومحاسبه ، وحذّره من سوء عواقب أفعاله ،

---

(١) انظر : أحكام أهل الذمة مرجع سابق جـ١ صـ٢١٦، ٢١٧.

(٢) انظر: أحكام أهل الذمة مرجع سابق ج١ صـ ٢٢١، ٢٢٢.

وأشار عليه بترك ما يكون سبباً لهلاكه ، وكان جماعة من كتاب مصر وقبطها في مجلسه فقال مخاطباً له ومسمعاً للجماعة : نحن ملاك هذه الديار حرباً وخراجاً ، ملكها المسلمون منا ، وتغلبوا عليها وغصبوها واستملكوها من أيدينا ، فنحن مهما فعلنا بالمسلمين فهو قبالة ما فعلوا بنا ، ولا يكون له نسبة إلى من قتل من رؤسائنا وملوكنا في أيام الفتوح ، فجميع ما نأخذه من أموال المسلمين ، وأموال ملوكهم وخلفائهم حل لنا ، وبعض ما نستحقه عليهم ، فإذا حملنا لهم مالاً كانت المنة عليهم ، وأنشد :

بنت كرم غصبوها أمها ... وأهانوها فديست بالقدم
ثم عادوا حكموها فيهم ... ولناهيك بخصم يحتكم

فاستحسن الحاضرون من النصارى والمنافقين ما سمعوه منه ، واستعادوه وعضوا عليه بالنواجذ حتى قيل : إن الذي اختاط عليه قلم اللعين من أملاك المسلمين مئتا ألف واثنان وسبعون ألفا (٢٧٢٠٠٠) ما بين دار وحانوت ، وأرض بأعمال الدولة ، إلى أن أعادها إلى أصحابها أبو علي بن الأفضل ، ومن الأموال مالا يحصيه إلا الله ، ثم انتبه الآمر من رقدته ، وأفاق من سكرته ، وأدركته الحمية الإسلامية والغيرة المحمدية ، فغضب لله غضب ناصر للدين ، وبار بالمسلمين[1].

٨- ومن ذلك ما رواه المقريزي في (خططه) : حيث ذكر أسباب انتفاضة سنة ٧٢١هـ/١٣٢٠م : أن النصارى عملوا كتاباً لدى الأمراء الخاصكية وترفعوا على المسلمين وكان منهم نصراني (والكاتب عندهم يجمع الضرائب أيضاً) لدى أمير يدعى عين الغزال فجاء سمسار مسلم ، وكان تأخر عن دفع ما عليه من ضريبة فأخذ يستسمح الكاتب ، والكاتب يغلظ له فقبَّل المسلم رجل النصراني والنصراني لا يزداد إلا عتواً وسباً وضرباً للمسلم ، فتجمع الناس واستشفعوا له وهو لا يزداد إلا صلفاً وتجبراً، فغضب الناس وألقوا الكاتب النصراني عن حماره،

---

(١) انظر: أحكام أهل الذمة مرجع سابق ج١ صـ ٢٢٦، ٢٢٧.

وأطلقوا السمسار وكان النصراني قد قرب من بيت الأمير عين الغزال ، فاستنجد بالأمير ،فبعث له غلمانه فخلصوه من الناس وشرعوا في القبض عليهم ليفتكوا بهم .

فذهب فريق من الناس إلى قلعة السلطان وصاحوا «نصر الله السلطان» فأرسل يستكشف الخبر ، فعرّفوه ما كان من استطالة النصراني على السمسار ، وما جرى له ولهم ، فطلب السلطان الأمير عين الغزال ، وأحضر الأمراء وجميع النصارى الكتّاب لديهم الذين استطالوا على المسلمين وأذلّوهم ، فأمر بقتل النصارى هؤلاء ، فتقدم إليه الأمراء واستشفعوا لهم ، فأمر السلطان الأشرف خليل ألا يُستخدم اليهود والنصارى في دوائر الدولة ، ولا عند الأمراء . وأمر الأمراء أن يعرضوا الإسلام على من لديهم من الكتّاب والموظفين من أهل الكتاب ، فمن قبل الإسلام تركه في وظيفته ، ومن أبى أخرجه من وظيفته ، فأظهروا الإسلام ، فأنعم عليهم السلطان بالتشريفات ، وبقوا في وظائفهم حتى قال الشاعر :

أسلم الكافرون بالسيف قهراً ... وإذا ما حلوا فهم مجرمونا

سلموا من رواح مال وروح ... فهم سالمون لا مسلمونا

٩- ومن ذلك ما رواه المقريزي في (خططه) أيضا قال : لما انتهى الفيضان زمن ولاية «الحافظ لدين الله» انتدب الموفق بن الخلال جماعة من العدول والكتاب النصارى إلى الولايات والأعمال ، لتحرير ما شمله الري وما زرع من الأرض ، وتقدير خراجها وكتابة المكلفات .

وحدث أن خرج إلى بعض الجهات من يمسحها من شاد وناظر وعدول ، وتأخر الكاتب النصراني ثم لحقهم .

وأراد الكاتب عبور النهر إلى الناحية الأخرى فحمله ضامن المعدية حتى إذا بلغ وجهته المقصودة سأله أجره ، فغضب الكاتب وسبه ، وقال له : أنا ماسح هذه البلدة وتريد حق التعدية ؟ .

فقال له الضامن : إن كان لي زرع فخذه .

ثم تقدم فخلع لجام بغلة القبطي وألقاه في معديته . فلم يجد الكاتب بداً من دفع الأجرة حين أخذ لجام بغلته .

ولما انتهى من مسح البلدة ، وفرغ من تبييض المكلفة وحملها إلى ديوان الخراج في العاصمة كما جرت العادة ، وأضاف عشرين فداناً إلى المجموع ، وترك فراغاً بإحدى الصفحات وأطلع الشهود على القائمة فوقعوا بصدقها .

ثم كتب هو البياض الذي تركه (أرض اللجام) باسم صاحب المعدية ، وقدرها بعشرين فداناً ، لكل فدان أربعة دنانير . ثم جمل المكلفة إلى ديوان الأصيل .

وكانت العادة قد جرت أنه بعد انقضاء أربعة أشهر من السنة الخراجية ، ترسل جنود أصحاب بطش وقوة ، وكتاب وشهود ، وكاتب نصراني إلى الولايات لاستخراج ثلث خراج الأرض وفقاً للمكلفات .

وكان هذا القدر من المال ينفق على الجند إذ لم تكن لهم وقتئذ إقطاعيات .

ولم يكن من المألوف إرسال الرجل الذي قام بمسح الأرض ، بل يندب آخر مكانه .

ولما ذهبت هذه الجماعة وأعني بها (الشاد والكاتب والعدول) لجمع ثلث مال الناحية استدعوا أرباب الزرع ، ومن بينهم ضامن المعدية ، وأرغموه على دفع ستة وعشرين وثلثي دينار .

فأنكر أن يكون مالكاً لأي أرض في هذه الناحية وأيده القرويون في إنكاره . فرفض الشاد ـ وكان فظاً عسوفاً ـ الاستماع إلى شهادتهم وضربه بالمقارع ، وأرغمه على بيع قاربه وغيره لدفع الثلث الثابت عليه .

فسار صاحب المعدية إلى القاهرة ، وأبلغ الخليفة قصته ، فأعيد النظر في قوائم الخراج ، فلم يجدوا أية إشارة إلى أرض اللجام .

فأمر الخليفة بإحضار الكاتب وسمِّر في مركب وقام له من يطعمه ويسقيه وتقدم أن يطاف به في سائر الولايات وينادى عليه ، كما أمر بكف يد النصارى كلهم عن الخدمة .

وكان الحافظ مولعاً بالفلك والتنجيم ، فعمد النصارى إلى رشوة منجمه الخاص وطلبوا إليه أن يفضي للخليفة بأن مصر ستزدهر إن أقام السلطان في تدبير الدولة واحداً معيناً من النصارى ـ هو الأكرم بن زكريا ـ فجازت الحيلة على الخليفة وجعل للأكرم أمر الدواوين .

وبادر الأكرم من ساعته إلى زيادة عدد المسيحيين أكثر مما كانوا عليه قبلا ، وظهرت عليهم دلائل النعمة ، فارتدوا الملابس الجميلة ، وركبوا البغلات الرائعة ، والخيول المسومة بالسروج ، وبالغوا في الشدة على المسلمين ، وضايقوهم في أرزاقهم واستولوا على الأحباس الدينية والأوقاف الشرعية ، واتخذوا العبيد والمماليك والجواري من المسلمين والمسلمات ، حتى لقد حملوا أحد الكتاب المسلمين على بيع أولاده وبناته بغرامة فرضوها عليه .

والتزم الخطوة نفسها أبو نجاح النصراني المعروف بالراهب .

فقد اقتضت مشيئة الخليفة المنصور أبو علي الملقب بالآمر ـ وهو عاشر الخلفاء الفاطميين ـ أن يسند إليه منصب الوزارة .

وباشر الرجل عمله فارتكب مظالم كثيرة ، وسار في سياسة أحفظت عليه النفوس وبغَّضته لدى العامة .

ولم يفلت من بلائه كبار الموظفين ومنهم القضاة والكتاب .

بل لقد أُثِرَ عنه ما يدل على تنقص لمكانة النبي ﷺ .

ثم أخذ يشتد في مصادرة أموال الناس على اختلاف طبقاتهم إلى أن لقى مصرعه أخيراً في الحادثة الآتية :

ذلك أنه كان يجلس بالجامع العتيق ، ويرسل في استدعاء من أراد مصادرة أمواله ، وفي يوم من الأيام طلب رجلاً من العدول الممتازين يعرف بابن الغرس ، كان قد نال قدراً كبيراً من إجلال الناس واحترامهم . فأهانه .

فخرج من عنده ووقف في المسجد يوم الجمعة ، حيث يشتد ازدحام الناس وعبَّر عما شعر به من آلام وأحزان قائلاً :

يا أهل مصر انظروا عدل مولانا الآمر في تمكينه النصراني من المسلمين!

وهاجت هذه الكلمات عوامل الغضب في النفوس ، وكادت تفضي إلى نشوب الفتن والاضطرابات ، لولا تداخل خواص الخليفة في الأمر ، وأعلموا مولاهم بما حل بالمسلمين من عدوان هذا الوزير وخوفوه سوء العاقبة .

فبعث الخليفة في طلب أبي نجاح .

فلما مَثَلَ بين يديه ، انطلق رجل من الأشراف ، كان في حضرة الخليفة وأنشده هذا البيت :

إن الذي شُرِّفْتَ من أجله يزعم هذا أنه كاذب

يقصد تذكير الخليفة بما أشيع عن الراهب من تهجم على مكانة رسول الله .

وعندئذ التفت الخليفة إلى أبي نجاح وقال له :

ما تقول يا راهب ؟ فسكت فأمر بقتله ....[1]

ثانياً : التعاون مع أعداء المسلمين وموالاة الغزاة الماكرين .

لم يلق النصارى ولا لغيرهم ؛ ممن عاش في كنف دولة الإسلام : صدراً أوسع من صدر الإسلام ، ولا قلباً أرأف من قلوب أهله ، ولا عدلاً أعظم من عدل قادته وحكامه ؛ بيد أن أناساً تعودوا على قطع الأيدي التي مدت إليهم بالإحسان ، والتآمر على الدول التي شملتهم بالرعاية والأمان ، وهذا ما بدا وظهر من بعض النصارى والتاريخ يسجل لنا بعض هذه المواقف المخزية لهؤلاء ، ومنها :

١- ذكر ابن كثير في أخذ التتار لدمشق قال : أرسل هولاكو وهو نازل على حلب جيشا مع أمير من كبار دولته يقال له « كتبغا نوين » .... وتداعت القلعة

---

(١) انظر : التعصب والتسامح مرجع سابق صـ٥٧-٦٠ نقلا عن المقريزي في خططه .

للسقوط فأجابهم متوليها في آخر ذلك النهار للمصالحة ، ففتحوها وخربوا كل بدنة فيها وأعالي بروجها ، وذلك في نصف جمادى الأولى من هذه السنة ، وقتلوا المتولي بها بدر الدين بن قراجا ، ونقيبها جمال الدين ابن الصيرفي الحلبي ، وسلموا البلد والقلعة إلى أمير منهم يقال له : ابل سيان ، وكان لعنه الله معظما لدين النصارى فاجتمع به أساقفتهم وقسوسهم فعظمهم جدا ، وزار كنائسهم فصارت لهم دولة وصولة بسببه ، وذهب طائفة من النصارى إلى هولاكو وأخذوا معهم هدايا وتحفا وقدموا من عنده ومعهم أمان فرمان من جهته ، ودخلوا من باب توما ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤس الناس ، وهم ينادون بشعارهم ويقولون : (ظهر الدين الصحيح دين المسيح)، ويذمّون دين الإسلام وأهله ، ومعهم أواني فيها خمر ، لا يمرون على باب مسجد إلا رشوا عنده خمرا ، وقماقم ملانة خمرا يرشون منها على وجوه الناس وثيابهم ، ويأمرون كل من يجتازون به في الأزقة والأسواق أن يقوم لصليبهم ، ودخلوا من درب الحجر فوقفوا عند رباط الشيخ أبي البيان ورشوا عنده خمرا ، وكذلك على باب مسجد درب الحجر الصغير والكبير ، واجتازوا في السوق حتى وصلوا درب الريحان أو قريب منه ، فتكاثر عليهم المسلمون ، فردوهم إلى سوق كنيسة مريم ، فوقف خطيبهم إلى دكة دكان في عطفة السوق فمدح دين النصارى وذم دين الإسلام وأهله ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .[1]

٢- نقل صاحب كتاب «النجوم الزاهرة في تاريخ ملوك مصر والقاهرة» : أن الفرنج لما حاصروا أنطاكية مدة ، نافق رجل من أنطاكية يقال له فيروز ـ وكان نصرانيا ـ وفتح لهم في الليل شباكا فدخلوا منه ، ووضعوا السيف ، وهرب شعبان ـ حاكم أنطاكية ـ وترك أهله وأمواله وأولاده بها ، فلما بعد عن البلد ندم على ذلك ، فنزل عن فرسه فحثى التراب على رأسه ، وبكى ولطم ، وتفرق عنه أصحابه ،

---

(١) انظر : البداية والنهاية مرجع سابق جـ١٣ صـ٢١٩.

وبقي وحده فمر به رجل أرمني حطّاب فعرفه فقتله ، وحمل رأسه إلى صنجيل ملك الفرنج [1].

٣- ونقل أيضا صاحب كتاب «النجوم الزاهرة في تاريخ ملوك مصر والقاهرة» عن أبي يعلى بن القلانيسي : أن قوما من أهل أنطاكية ـ وكانوا نصارى ـ عملوا وواطأوا الفرنج على تسليمها إليهم لإساءة تقدمت من حاكم البلد في حقهم ومصادرته لهم ، ووجدوا الفرصة في برج من الأبراج التي للبلد مما يلي الجبل ، فباعوهم إياه وأصعدوا منه في السحر وصاحوا ، فانهزم ياغي سيان وخرج في خلق عظيم ، فلم يسلم منهم شخص [2].

٤- ولقد تكرر مشهد الغواية والخيانة في مطلع العصر الحديث عندما جاء بونابرت (١٧٦٩-١٨٢١م) على رأس الحملة الفرنسية لغزو مصر (١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م) ، وألقى حبال الغواية لأبناء الأقليات الدينية ، ووقع في هذه الحبال نفر من أقباط مصر ، خانوا أمتهم وطائفتهم وكنيستهم . قادهم «المعلم يعقوب حنا» (١٧٤٥-١٨٠١م) وكونوا فيلقاً قبطياً تزيّا بزي الجيش الفرنسي ، وحارب المصريين وأذلهم لحساب الفرنسيين . ولقد تحدث مؤرخ العصر الجبرتي (١١٦٧-١٢٣٧هـ/١٧٥٤-١٨٢٢م) عن صنيع «بونابرت» مع هذه القلة الخائنة ، عندما جعل لهم نصف عضوية «ديوان المشورة» ، والسلطة الفعلية في الجهاز المالي والإداري وبعبارة الجبرتي ، فلقد فوض الجنرال كليبر (١٧٥٣-١٨٠٠م) للجنرال يعقوب «أن يفعل بالمسلمين ما يشاء حتى تطاول النصارى من القبط ونصارى الشوام على المسلمين بالسب والضرب ونالوا منهم أغراضهم وأظهروا حقدهم ، ولم يبقوا للصلح مكاناً وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين!» [3].

---

(١) انظر : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة مرجع سابق جـ٥ صـ١٤٦.

(٢) انظر : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة مرجع سابق جـ٥ صـ١٤٧.

(٣) انظر : عجائب الآثار في التراجم والأخبار الجبرتي تحقيق حسن محمد جوهر ، وآخرون ط ١٩٦٥ جـ٥ صـ١٣٦. وانظر: في المسألة القبطية د : محمد عمارة صـ٥٢، ٥٣ مكتبة الشروق القاهرة الطبعة الأولى ٢٠٠١ م .

٥- الاستغاثة بالأم أمريكا[١] : ففي أحداث الكاتدرائية المرقسية (مقر بطريرك الأقباط الأرثوذكس) المصاحبة لإسلام وفاء قسطنطين سمع العالم كله هتافات من داخل الكاتدرائية أقرب ما يمكن أن توصف به : خيانة عظمى «يا أمريكا فينك فينك .. أمن الدولة بيني وبينك»! وهي استغاثة بأمريكا ؛ الأم الشفوق والصدر الحنون ، إنها دعوة صريحة للتدخل الأمريكي لحماية الأقباط من اضطهاد «يشنشن» به من يطلق عليهم : أقباط المهجر .

وفي واقعة الفيوم[٢] رُفعت لافتة بالإنجليزية تقول : «Christians under attack» أي (النصارى تحت وطأة الهجوم) ، وقد كانت الكنيسة دائما ما تؤكد بأن أصحاب هذا التوجه ما هم إلا فئة ضالة ، أصبحت ألعوبة في يد المخابرات الأمريكية ، والصهيونية العالمية . ولكن يبدو أن الكنيسة في حد ذاتها قد وقفت هذا الموقف ، ولم يكن الموقف لأقباط المهجر فحسب ؛ وإنما كان من أقباط الداخل كذلك .

٦- أقباط المهجر : وآخر هذه المواقف المخزية هو لمن يطلق عليهم أقباط المهجر ، وهؤلاء يتم استخدامهم بأخس الطرق وأحقرها ، حيث تدفع لهم الرواتب من الخزانة الأمريكية بالدولار الأمريكي ، وأفظع ما في الأمر أن يعلن بعض المنتمين إلى هذه الطائفة على مواقعها على الإنترنت عن حاجة المخابرات

---

(١) الاستعانة بالأم أمريكا ديدن الكثير من الأقباط في مصر ، وورقة الأقلية الدينية والاضطهاد الديني يلجأ إليها أقباط مصر على وجه العموم ، وأقباط المهجر على وجه الخصوص .

(٢) رغبت فتاتان هما : ماريان مكرم وتريزا إبراهيم ، المتخرجتان حديثاً من كلية الطب في شهر إسلامهما ، واتجهت لفتاتان إلى الشهر العقاري بالفيوم لتوثيق اعتناقهما للإسلام ، وهنا تدخلت أجهزة الأمن ، وطلبت من رجال الدين المسيحي في الفيوم الحضور لأحد فنادق المدينة لعقد جلسة نصح للفتاتين كما هو متعارف عليه عند إسلام أي نصراني، والتي يقوم بعض الكهنة من خلالها بتقديم النصح بالبقاء على دينهما ، وما أن علم أقباط الفيوم بما جرى حتى خرجت جموع حاشدة بالآلاف أغلبهم من الشباب للتظاهر داخل كنيسة مارجرجس يوم ٢٧ فبراير ٢٠٠٤ ، احتجاجاً على عقد جلسة النصح !! وطالبوا بإعادة الفتاتين لأسرتيهما ، وانتهت القضية بتلك الجلسة التي جرى خلالها (إقناع!) الفتاتين بعدم المضي قدماً في إجراءات الإشهار !

الأمريكية عن عملاء وجواسيس ممن يحملون الجنسية العربية برواتب مغرية تتجاوز الخمسة آلاف دولار .

وكان موقع «العربية» قد نشر على صفحاته ما يؤكد هذه الفضائح المخزية ، والعار المشين ، قالت «العربية» : ناشدت مواقع قبطية على الإنترنت رئيس وزراء إسرائيل أرييل شارون والحكومة الأمريكية التدخل في هذه القضية . كما طالب عدد من الأقباط المصريين غالبيتهم في الولايات المتحدة بحكم ذاتي للأقباط في مصر .

وقد سعى عدد من أقباط المهجر في أمريكا وكندا ، عبر بيانات وصلت للصحف المصرية ، الاستنجاد بأمريكا وإسرائيل لحمايتهم ، وطلب وساطة رئيس الوزراء الإسرائيلي آرئيل شارون مع الحكومة المصرية .

وأبدت مصادر رسمية غضبها مما تنشره بعض مواقع أقباط المهجر على شبكة الإنترنت من تحريض على الفتنة الطائفية في مصر ، ومزاعم عن قصص لأسلمة زوجات كهنة ، ودعوة أطراف خارجية للتدخل ، خاصة بيان لـ «الجمعية الوطنية القبطية» ، التي تتخذ من واشنطن مقرا لها ، وصل لصحف محلية ، يطالبون فيه شارون بحماية الأقباط ، والتدخل لدى الحكومة المصرية لمنع ما يسمى «اضطهاد الأقباط»، حيث «كان الأقباط أيام أجدادهم الفراعنة يحتمون باليهود ووزيرهم آنذاك يوسف الصديق ، واليوم جاء دوركم» ، وفق نص البيان .

وقد قام المهندس مايكل منير رئيس منظمة أقباط الولايات المتحدة ، وفق موقع «أقباط أمريكا» على الإنترنت ، بإرسال عدة خطابات إلى الرئيس الأمريكي جورج بوش وأعضاء الكونجرس الأمريكي ، يحثهم فيها على التدخل لدى الرئيس المصري حسني مبارك ، لإيقاف «مثل هذه الأعمال الإرهابية من قوات الأمن المصرية» . وقالت إنه سيتم عقد لجنة سماع في الكونجرس عن الأحداث القائمة في مصر قريباً [1].

---

(١) انظر : موقع العربية نت "www.alarabiya.net" .

الخاتمة

وأخيرا فتلك صفحة الإسلام بيضاء نقية ، لا يستطيع أحد أن يزايد علينا فيها ، وليس على ملقي التهم ، ومثيري الشغب ؛ من مبغضي الإسلام ، وكارهي أنفسهم : إلا أن يقرأوا الإسلام دون أحكام مسبقة ، أو اعتقادات خاطئة ؛ عارية عن الدليل أو البرهان .

إن أي نحلة من النحل ، أو ديانة من الأديان لن تستطيع أن تأتي بمثل ما جاء به الإسلام ، ولا أن تعطي النصارى أو غيرهم من الملل والنحل مثل ما أعطاهم الإسلام ، ولا عشر معشاره .

والسبب في ذلك هو أن الذي أعطى هذه الحقوق ليس بشرا مخلوقا له ما له من الأهواء والميولات ، وإنما هو إله خالق حكيم عادل ، قال سبحانه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤) .

أسأل الله سبحانه أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل ، وأن يرزقنا الرشد والسداد ، وهو على كل شيء قدير ، والحمد لله أولا وآخرا .

* * *

المراجع

● القرآن الكريم .

● كتب التفسير :

١- أحكام القرآن ، الجصاص ، جـ٢ صـ٣٢٧ ، ط دار الكتاب العربي بيروت ، بدون .

٢- تفسير القرآن العظيم ، الإمام ابن كثير ، ط دار الفكر ١٤٠١ هـ .

٣- جامع البيان عن تأويل القرآن ، ابن جرير ، ط دار الفكر بيروت ١٤٠٥ هـ

٤- الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، دار الشعب ، الطبعة الثانية ١٣٧٢هـ .

٥- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، الطبعة التاسعة١٩٨٠م .

● كتب الحديث :

٦- صحيح البخاري .

٧- صحيح مسلم .

٨- سنن أبي داود .

٩- سنن النسائي .

١٠- سنن ابن ماجه .

١١- موطأ مالك .

١٢- مسند أحمد .

١٣- مجمع الزوائد .

١٤- السلسلة الصحيحة ، الألباني .
١٥- صحيح الجامع الصغير ، الألباني .
١٦- صحيح سنن الترمذي ، الألباني .
١٧- صحيح سنن أبي داود ، الألباني .
١٨- ضعيف الجامع الصغير ، الألباني .
١٩- الموسوعة الحديثية ، تحقيق الشيخ شعيب الأرنؤط وآخرون ، مؤسسة الرسالة ط الثانية ١٩٩٩م .

● **المعاجم :**

٢٠- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، أ : محمد فؤاد عبد الباقي ، ط دار إحياء التراث العربي .
٢١- معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، ط دار الفكر بيروت ، بدون .

كتب ومراجع عامة :

٢٢- أحكام أهل الذمة ، ابن القيم ، دار العلم للملايين ، ط الأولى ١٩٦١م .
٢٣- أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام ، د : عبد الكريم زيدان ، ط الثانية ١٩٧٦م .
٢٤- الإسلام والسياسة الرد على شبهات العلمانيين ، محمد عمارة ، طبعة دار الرشاد القاهرة ، ١٩٩٧م .
٢٥- الإسلام والنصرانية مع المدنية والعلم ، الشيخ : محمد عبده ، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الثالثة ١٩٨٨ م
٢٦- الأموال ، حميد بن زنجويه ، تحقيق : د : شاكر ذيب فياض ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات ، ط الأولى ١٩٨٦م .
٢٧- الأموال ، أبي عبيد القاسم بن سلام ، تحقيق : د : محمد عارة ، دار الشروق ، ط الأولى ١٩٨٩م .

٢٨- بدائع الصنائع ، الكاساني ، دار الكتاب العربي لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٤م.

٢٩- البداية والنهاية ، ابن كثير ، ط مكتبة المعارف بيروت ، بدون تاريخ .

٣٠- تاريخ الأمم والملوك ، الطبري ، دار الكتب العلمية بيروت ، الأولى ١٤٠٧هـ.

٣١- ترتيب المدارك ، القاضي عياض، ط دار الحياة ببيروت .

٣٢- التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ، الشيخ محمد الغزالي ، ط : دار البيان الكويت .

٣٣- حاشية رد المحتار ، ط دار إحياء التراث العربي بيروت ، بدون .

٣٤- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع عشر ، آدم متز .

٣٥- الحق المر ، محمد الغزالي ، دار الشروق ، الطبعة الأولى ١٩٨٩م .

٣٦- حلية الأولياء ، أبو نعيم ، دار الكتاب العربي بيروت ، ط الرابعة ١٤٠٥هـ.

٣٧- الدعوة إلى الإسلام ، سير توماس أرنولد ، ترجمة د إبراهيم حسن وآخرون ، الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة .

٣٨- الرحيق المختوم ، الشيخ صفي الدين المباركفوري ، دار الفكر ، ط الأولى ١٩٩١م .

٣٩- زاد المعاد ، الإمام ابن القيم ، مؤسسة الرسالة ، ط الثانية ١٩٩٧م .

٤٠- سيرة ابن هشام ، ابن هشام .

٤١- شرح السير الكبير ، طبعة الجامعة ، بدون .

٤٢- الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، طبعة دار صادر بيروت ، بدون .

٤٣- عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، الجبرتي ، تحقيق حسن محمد جوهر ، وآخرون ، ط ١٩٦٥ .

٤٤- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعه، ط دار مكتبة الحياة بيروت.

٤٥- غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، د: يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ط الرابعة ١٩٨٥م.

٤٦- فتاوى معاصرة، الدكتور، القرضاوي، ج ٣ ص ١٦٩، دار القلم الكويت، ط الثالثة ٢٠٠١م.

٤٧- فتوح البلدان، البلاذري، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١٤٠٣ هـ.

٤٨- فقه السنة، سيد سابق، دار الفكر، ط ١٩٩٢م.

٤٩- فقه الزكاة، د يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، ط الحادية والعشرون، ١٩٩٤ م.

٥٠- في المسألة القبطية، د: محمد عمارة، مكتبة الشروق القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠١ م.

٥١- الفروق، القرافي، دار المعرفة بيروت، بدون.

٥٢- قصة الحضارة، ول ديورانت.

٥٣- الكامل، محمد بن محمد الشيباني، ط دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٩٥م.

٥٤- مجموع الفتاوى، ابن تيمية، بدون.

٥٥- من روائع حضارتنا، د: مصطفى السباعي، دار القلم الكويت، الطبعة الثالثة ١٩٨٢م.

٥٦- موقف الإسلام العقدي من كفر اليهود والنصارى، د. القرضاوي، مكتبة وهبة، ط الأولى ١٩٩٩ م.

٥٧- المبسوط، السرخسي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط الأولى ٢٠٠٢م.

٥٨- المحلى، ابن حزم، ط دار الأفاق الجديدة بيروت، بدون.

٥٩- المسيحية عبر تاريخها في المشرق ، تحرير كل من : حبيب بدر وسعاد سليم وجوزيف أبو نهرا ، صادر عن المجلس كنائس الشرق الأوسط بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ٢٠٠١م .
٦٠- المغني ، ابن قدامة ، طبعة هجر ، الأولى ١٩٧٩م .
٦١- الملل والنحل والعراق . هموم الأقليات في العالم العربي ، سعد الدين إبراهيم ، ط ١٩٩٠م .
٦٢- المنهاج مع الحاشية ، محمد بن أحمد الشربيني الخطيب ، طبعة دار الكتب العلمية .
٦٣- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي ، طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة .
٦٤- هذا الدين ، الشهيد سيد قطب ، دار الشروق ، ط ١٩٧٨م .
٦٥- يا أقباط مصر انتبهوا ، محمد مورو ، ط دار المختار الإسلامي ، ١٩٩٨م .

● **الحوليات والدوريات :**

٦٦- السياسة الأموية تجاه أهل الذمة ومؤسساتهم في بلاد الشام ، مروان القدومي ، بحث في مجلة الدعوة الإسلامية الليبية ، عدد ٥ .

● **الصحف والمجلات :**

٦٧- الأهرام المصرية بتاريخ ٩ / ٣ / ٢٠٠٣ م ، وتاريخ ١ / ٤ / ٢٠٠٣ . وتاريخ ٦/٣ / ١٩٨٥م .
٦٨- صحيفة الوفد القاهرية عدد ٢١/ ١/١٩٩٣م .

● المواقع الإلكترونية على شبكة الإنترنت :

٦٩- موقع العربية نت « www. alarabiya. net » .